ب ــ المرحلة الانتقالية في جبل لبنان

لن نقوم بدراسة تاريخية لاحدى أعقد مراحل تاريخ جبل لبنان ، بل سنقف فقط عند العناصر الاساسية التي تحدد مرحلة الانتقال لنكشف علاقاتها . فنحن في دراستنا ، لا نقوم بدراسة تحقيبية . نعود الى هذه المرحلة ، لكي نكشف عناصر الملكية كما حددناها في النقطة السابقة .

حين نتحدث عن انتقال ، فان هذا يعني انتقالا من شكل ملكية الى شكل آخر . فالملكية التي سادت الجبل في القرن الثامن عشر ، كانت الملكية العثمانية التي منها جرى الانتقال الى ملكية جديدة . فما هي عناصر هذه الملكية :

-ملكية الدولة وأشكالها الفعلية :

تتحدد الملكية العثمانية ، من خلال أولية سحب ريع الاراضي الزراعية التي يقوم الفلاحون بزراعتها . فالملكية من حيث المبدأ هي ملكية الدولة ، أي ملكية السلطان التي يقطعها لولاته وللامراء ولقادة الجيش ويستخرج الريع منها . لكن هذا التحديد هو تحديد عائم ، لأن سحب الريوع يخضع لمراتبية هي التعبير عن التوازنات العامة في السلطنة في علاقاتها بتوازنات الجبل .

ان هذه المراتبية : السلطان ، الوالي ، الامير ، المقاطعجي ... هي تعبيرات عن توازنات العصبيات المتنازعة على سحب الريع . والملكية هي بهذا المعنى ، لحظة توازن هذه العصبيات . لذلك في فترات صراعات العصبيات ، أي انهيار توازناتها ، يعاد توزيع الملكية ، على حجم التوازن الجديد الذي ينتج عن الصراع . هكذا تصبح المراتبية لحظة توازن للملكية الخراجية ، تقوم على الغلبة . اذ لا تستطيع العصبيات تصفية بعضها ، بل تتحالف ضد بعضها من أجل اعادة تشكيل التوازن .

« لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج للمتكون والمزاج في المتكون لا يصلح اذ تكافأت العناصر ، فلا بد من غلبة أحدها والا لم يتم التكون . فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية . ومن تعيين استمرار الرئاسة في النصاب المخصوص كما قررناه(٢) » .

تقوم هذه الملكية على العصبية ، أي على نظام القرابة ، بوصفه اعادة انتاج النسل واعادة انتاج لعلاقات الانتاج . لكن هذه العصبية هي مزاج ، أي تتكون من أكثر من عنصر واحد . اذا أخذنا نظام القرابة في الجبل قبل الانتقال ، أي في القرن الثامن عشر ، فاننا نلاحظ ثلاثة مستويات .

١ ــ **العشيرة :** القائمة على علاقات الحسب .

٢ ــ **العائلة :** القائمة على علاقات الزواج والحسب المزدوج (الاب ، الام) .

بين هذين المستويين ، كان المستوى الاول هو الغالب . فالعشيرة عبر تحالفاتها كانت تشكل قاعدة الملكية القائمة على المراتبية والتوازن .

٣ ــ **الطائفة :** هناك مستوى ثالث : الطائفة . الذي كان يضبط المستويين الاولين ضمن ايديولوجية الاقلية الدينية المعرضة للاضطهاد ، وضمن وضع حدود لعلاقات الزواج . دون أن يستطيع الهيمنة على المستويين الاولين ، لأن علاقات الانتاج كانت تحدد بمراتبية وتوازن يضبطان بالدولة بوصفها المالك الاسمي للارض ، وبالعشيرة بوصفها قاعدة المراتبية والتوازن التي يقوم عليها سحب الريع .